الطفل نائم

قصة بقلم زكريا تامر

رمق الطفل دميته بنظرات حانية ، ورجاها ان تسابقه في العدو حول البحرة التي تتوسط باحة البيت . وكانت الدمية بنتا جميلة ، سوداء الشعر والعينين ، وقد رفضت تلبية رجاء الطفل قائلة انها اميرة ولا يليق بالاميرات ان يركضن مع ولد حافي القدمين .. الاميرات لا يمشين بل يركبن عربات ذهبية تجرها خيول بيض .

استاء الطفل من جوابها ، ولاذ بالصمت هنيهات ثم ما لبث ان ابتسم وعاود التحدث مع دميته ، فأبت ان تتخلى عن صمتها واغمضت عينيها بحركة ازدراء ، فانفجر آنئذ غضب الطفل، وسب الدمية ، ورماها ارضا بحنق ثم قصد المطبخ حيث كانت امه منهمكة في اعداد طعام الغداء.

وحين ابصرته الام ابتدرته قائلة بلهجة مؤنبة : « ألم اقل لك ان لا تدخل المطبخ » ؟.

فقال الطفل : « عطشت » .

فملأت الام كوبا زجاجيا بالماء ، وقدمته الى طفلها متذمرة . وما ان هم الطفل بشرب الماء حتى افلتت يداه الكوب ، وسقط على الارض فتحطم وتناثرت شظاياه ، فزعقت الام غضبى ، وامرت طفلها بمغادرة المطبخ فورا ، فلم يطعها انما تشبث بطرف ثوبها متباكيا ، وانباها بانه يكره دميته وسيقطع رأسها بالسكين ، فاحتارت الام ، وتطلعت فيما حولها بعينين مستغيثتين فلمحت جريدة عتيقة مرمية على رف خشبي ، فتناولتها واخذت تطويها بحركات بارعة ، وصنعت منها زورقا صغيرا .

وفرح الطفل بالزورق ، وغادر المطبخ مهرولا نحو البحرة ، وهناك وضع الزورق على سطح الماء الساكن ثم طفق يحرك الماء بيديه محاولا ان يجعل الزورق ينساب متقدما الى الامام غير ان الزورق ظل يترنح متمايلا ومتجمدا في مكانه .

وسئم الطفل بعد حين من الزورق ، فتركه على سطح الماء ، وابتعد عن البحرة ، ووجد نفسه يتمدد على الارض بالقرب من دميته . واغمض عينيه بينما كان يتناهى اليه مواء قطه الاسود الذي كان يربض على سطح البيت مناديا بالحاح قطة الجيران .

وما ان استسلم الطفل للنوم حتى تحولت البحرة الى بحر هائج متلاطم الامواج ، وتحول الزورق الى سفينة ضخمة وتحولت الدمية الى امرأة جميلة الجسد ، فاحمة الشعر ، بيضاء البشرة ، تقف عارية القدمين على الشاطيء الرملي غير مكترثة بالقط الاسود الذي كان يحوم حولها وهو يموء مواء حادا .

وعصفت الريح بضراوة وقادت السفينة الى الشاطيء . ولم يسمع الطفل اصوات الريح لانه كان نائما ويرقب ارنبا ابيض اللون يعدو في بستان اخضر .

ورست السفينة على الشاطيء ، وتدفق منها سيل من الرجال ، وتعالى صراخهم وحشيا مبهورا لحظة لمحوا المرأة الجميلة ، واندفعوا نحوها طوفانا عارما من الاجساد المبتلة بماء البحر والعرق . فاطلقت المرأة صيحة ذعر مديدة . وركض القط الاسود هاربا . ولم تستطع صيحة المرأة ايقاظ الطفل النائم الذي كان يطارد ارنبا ابيض يعدو في بستان اخضر .

وحاولت المرأة الفرار غير ان الرجال تمكنوا من امساكها ، وطفقوا يتدافعون حولها متزاحمين ، يلهثون باصوات عالية ، وايديهم تتخاطف لحمها . واوشكت الدماء ان تراق على رمال الشاطيء لو لم يسارع واحد منهم كبير السن ، ويطالبهم بالتريث والهدوء والتعقل . وعندئذ تخلت وجوه الرجال عن تجهمها وتلاشى الضجيج ، وتحلقوا حول المرأة الملقاة على الرمل وهم يعضون على السنتهم باسنانهم .

وقاومت المرأة الرجل الاول ، فقوبلت بعنف ضار وبصيحات هزء من الرجال ، فاغمضت عينيها خجلة . وكان الطفل آنذاك ما يزال مستسلما للنوم يعدو محاولا الامساك بالارنب الابيض الهارب عبر البستان الاخضر .

واشتد جوع القط الاسود ، وفرح حين لمح افعى تزحف على الرمل فانقض عليها ولكنها سارعت الى الالتفاف حول عنقه ، فاطلق مواء متحشرجا .

وانتحبت المرأة دونما صوت بينما كان يختلج جسدها تحت اجساد الرجال كعصفور يحتضر غريقا في دمه . ولم يمسح الطفل دموعها لانه كان نائما ويركض محاولا اللحاق بالارنب الابيض الذي يعدو في البستان الاخضر . وكف جسد المرأة عن الاختلاج ، وهمدت اصوات نحيبها فتزايد فرح الرجال وتطلعوا الى جسدها الابيض الهامد العاري باعين يصرخ فيها جوع جديد .

وكان الطفل في تلك اللحظة ما زال يركض في البستان الاخضر مطاردا الارنب الابيض .

واضمحل جوع الرجال ، وحملقوا باشمئزاز الى جسد المرأة الملطخ بالدم ثم انحنوا وحملوا الجسد والقوا به الى البحر مطلقين آهة ارتياح.

وكان الذباب في تلك الهنيهة يغطي جثة القط الاسود .

وتلقفت مياه البحر جسد المرأة وغسلت فورا الدماء عنه ثم غاص الجسد الى اسفل يتبعه سمك كثير العدد بينما كان الطفل مغمض العينين مستسلما للنوم ، وكان ما يزال يطارد الارنب الابيض الذي يعدو مذعورا في بستان اخضر .

زكريا تامر

زوروا مكتبة السلام

السودان ـ حلفا الجديدة ص. ب ٢٣

جميع الكتب وادوات المدارس ومطبوعات دار الآداب